الحوشية المنفرة . ولكن لهذه الشوائب ظروفاً مخففة لا يسع الناقد العادل إلا أخذها بعين الاعتبار . الأولى ناشئة عن اضطراره إلى مجاراة من سبقه من الكتّاب والشعراء ، وإلى تقليد أساليبهم ليتفوق عليهم فى حلبة ميدانهم ، وهو الواسع الاطلاع، الواقف على أسرار اللغة وقوفاً قلما بلغه عالم فى عصره . أضف إلى هذا ميله إلى إثبات مقدرته اللغوية لتبرير نقده وإسناد ثورته إلى أسس عريقة .

أما ظروفه الثانية فهى النتيجة الحتمية لما أودعت مصائب ذويه ومصائبه فى قلبه من مرارة ، ولما قاس من استبداد السلطتين المدنية والدينية ، ولاشمئزازه من الرياء الاجتماعى » (٦) . والشيخ «نسيب » يشير هنا إلى محنة أخيه على يد البطريرك المارونى التى أشار إليها فى الكتاب الأول من « الساق على الساق » بقوله : « . . . وهب أن أخى - أسعد - جادل فى الدين وناظر وقال إنكم على ضلال ، فليس لكم أن تميتوه بسبب هذا » (٦) .

وسنرى كيف تختلف نظرة الأديب المبدع عن نظرة العالم الاجتماعى أو المفكر فى تلك الصورة التى وصف الشدياق فيها مصر عندما وصلها قادماً بطريق البحر من الاسكندرية . ونرى مدى ما اهتم به من وصف طباع الناس وأحوالهم وصفاً يخالف مخالفة جوهرية ما عبر عنه « على مبارك » فى « علم الدين »